عسف الاقدار (١)

— ١ —

البيت صغير منخفض . وقد أشرق القمر بعيد انسدال ستر الظلام فألقى على الجانب الغربى من القرية ، حيث كان يقوم ذلك البيت ، بظل ظليل ، كاد يحجب ضوء البدر ليلة تمامه.

فى جوف تلك الطبيعة الصامتة ، وتحت جنح ذلك الليل الهادئ الذى يستر العورات ، ويخفى الجرائم والآثام ، انسل شبح بشرى فى وسط حقل يحجب الزراع نباته ، وهو يحمل بين يديه شيئاً مسجى بقطة من القماش البالى .

أما الوجه فشاحب نحيل ، يكاد يشف عما تحت بشرته من العظام اصفراراً . والعينان غائرتان ، رغم كبرهما وجمالهما ، ترسلان لمعاناً مخيفاً . فلو أنك نظرت فيما ترسلان من نظرات حادة طويلة الى ما حولهما ، لما خيل اليك فى كل وقائع التاريخ من مثل لهما ، اللهم الا عينا ماكبث وقد هم بقتل ضنكان ، أو عينا بروتوس بعد أن قضى على قيصر الخالد العظيم . والقامة ممشوقة ، والقد أهيف ، ولكن النحول أخذ منه مأخذه حتى ليخيل اليك أن نسمات الليل الندية ، كافية لان تدمى ذلك الهيكلْ المتداعى . غير أنك لو فتشت فى جوف هذا الهيكل المتهدم لوقعت على ارادة متمردة قفازة الى غاياتها ، وثابة الى آمالها وأحلامها .

وأخذ الشبح يقترب من ذلك المنزل الصغير رويداً رويدا ممسكا أنفاسه ، ولو استطاع لأمسك حتى خطرات نفسه عن أن تترسل فى الانبعاث حذر واش أو رقيب . ولما أن احتواه ظل القرية الذى كان يحجب البدر عند شروقه أسرع الخطا الى نافذة كانت مفتوحة فى طابقه السفلى ، وقفز منها الى داخل المنزل .

وعاد الشبح مرة ثانية الى الخلاء ، ثم انحدر فى تسارع من الخطا يكاد يبلغ العدو الى الجنوب ، ثم مضى الى داخل القرية ، وما زال يلج من طريق الى آخر حتى اذا انتهى الى الطرف الشرقى انسل الى باب وشد وراءه الرتاج . وهنا انسدل ستر من الأمل فى اخفاء جريمة ، حيث أزيح فى الطرف الآخر ستر من اليأس فى اخفائها .

---

(١) القصة واقعية حدثت في قرية من قرى القليوبية المحاذية للنيل

— ٢ —

عمران رجل زهد فى الدنيا وزهدت الدنيا فيه . رجل عاش ما عاش قانعاً بما بين يديه وان كان فى ثروة ما تهيأت الا للقليلين من سكان قريته . أخذ من العلوم بضلع وافر وحازت نفسه من الادب والقناعة والرضا بما قسم الله قسطا جعله يتخذ فى الحياة من الفلسفة أسلوباً ، هو عند حد قول الشاعر :

أمطرى لؤلؤاً جبال سرنديب وفيضى عيون تكرور تبراً
أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبراً

وكثيراً ما كنت ترى عمراناً جالساً على حافة غدير أو تحت شجرة ، يطيل النظر فى الماء الجارى ، أو يعبث بالخضرة فى يده وبالاوراق والاغصان المدلاة من فوق رأسه . وكأنه فى حياته كلها وفى هدوئه وسكون نفسه واطمئنانه مثل لقول الشاعر :

قليل الهم لا ولد يموت وليس بخائف شيئاً يفوت
قضى وطر الصبا وأفاد علماً فغايته التفرد والسكون
وأكبر همه مما عليه تناحر من ترى خلق وقوت

وقد عرف ذلك الرجل بالصلاح والتقوى والثبات على ما يعتقد أنه حق ، وكان وكان فوق ذلك صريحاً فى لين ، وشجاعا فى دعة ، وقويا فى شفقة ، وجباراً فى فى رحمة ، وباسما فى لوعة ، وباكياً فى جذل ، وجذلاناً فى بكاء ، فهو فى مجموع ما فيه من صفات مثل رائع لهذه الحياة الدنيا ، إذ تتفق متناقضاتها على الانسان ، قيثارة الطبيعة ، وصوتها المنبعث من جوفها الهامد العميق .

وكان فى بيته وحيداً بعد أن ذهب الموت بمن كان يلوذ بهم أو يلوذون به من الاهل ، ولم يبق له الزمان الا على أخت له اختار لها الغيب أن تظل عانساً ، وأن تسهر على راحة أخيها وأن تقوم بخدمته . وقد خلا كلاهما من مشاغل هذه الحياة ، فكانا قلما يجلسان جلسة المتناجيين أو المتسارين بشىء من أخبار أهل القرية ، ذلك لأن الايمان كان قد ملأ قلبيهما فلم يترك فيه لمشاغل الدنيا مجالا .

وكان من عادة عمران أن يمضى وقتاً طويلا فى المسجد بعد العشاء يتوجه فيه الى الله من غير أن يتحرك لسانه بكلمة ، أو يسمع له صوت ، وكأنه فى صلاته الصامتة يقول :

« أنت يا سر الوجود ، يا حى يا معبود ، يا مسبب الاسباب ، يا مفتح الابواب ،

أعنى على نفسى ولا تعن نفسى على، يا أبدى القدم، أنت الحق وكل ما خلاك فناء وعدم»

وكثيراً ما كان يرى عمران فى خشوعه وثورة نفسه ذاهلا عن هذا الوجود أثناء صلاته الصامتة، وعيناه ترسلان قطرات من الدمع، تتهاطل كاللآلئ نظمت سبحة، تذهب اللؤلؤة منها فى إثر أخرى.

وطالت فى تلك الليلة غيبة عمران إذ أمضى سويعات يتأمل فى سر هذا الوجود وفى العناصر والناس، والله والدين والانبياء والرسل، وفى غرور الانسان وجشعه وطماعيته وتهالكه على السفاسف، وفى جرائمه وآثامه وما يدفع اليها من العوامل النفسية، والقواسر العقلية، وأخذ يتيه من قفر الى قفر، ويتنقل من فكر إلى فكر، حتى اذا أرسل القمر من كوة صغيرة كانت بجانبه خيطاً من الضوء فجاءة، تنبه الى العالم الحاف به، فاذا نصب النهار قد أهمد الاحياء، واذا بالقرية كأنها وادى الموتى، تغط فى سكون عميق، وقد أسدل الليل على حسناتها وسيئاتها من الظلام حجابا.

وكان الوقت خريفاً، والهواء باليلا. فأسرع الى منزله الصغير المنفرد فى طرف القرية، ولم يكد يصل اليه حتى شعر بأن فى البيت روحاً جديدة نبهت فيه كامن مخاوفه من الدنيا وظروفها الاحياء ومكائدهم. ولم يكد يبلغ الى فراشه ليهجع بعد طول نصبه، حتى شعر بأنفاس تتردد بجواره، فأشعل ناراً، واذا به يرى فوق فراشه طفلا حديث الولادة فى خرقة بالية، ما من سبب فى وجوده هنالك الا الجريمة يرتكبها الآثمون، ويلقون بثمرتها على أبواب الأتقياء.

***

— ٣ —

لو أن الأم المشفقة الآثمة، لو أن الأم البارة المجرمة، قد وجدت من هو أوسع من عمران صدراً، أو أرحب بيتاً، أو أكرم نفساً، أو أعرف بما يبعث شيطان الشهوة على شرائع الله والناس فى قواصر تهدم قواعدها، وتهد قائمتها، أو لو أنها وجدت من هو أحفظ لسرها، وأعرف بسر خطيئتها من عمران، لما ترددت لحظة فى أن تقذف بثمرة جريمتها على بابه. ولكن باب عمران فى الارض كباب الله فى السماء، يسع الاثم ويغفره، ويسع التوبة ويقبلها، ويسع الخير ويثيب عليه، لهذا لم تجد الآثمة من باب مولوج يسع كل هذه الاشياء الا باب

عمران ، بهذا قذفت بالثمرة المريرة اليه ، وهى على اعتقاد كامل فى أن المغفرة والتوبة رهن عليه .

هى أم بارة ولكنها آثمة . أم مشفقة ولكنها مجرمة . أم من أهل القرية أرادت أن تجعل بيت التقوى ستراً على جريمتها ، ورأت أن نظرة واحدة ترسلها الى ابنها فى بيت عمران من غير أن تستطيع أن تناجيه : « إلى يا ولدى » وتضمه الى صدرها ، خير من أن تفقد كل أمل فى أن تراه ، فتقضى العمر نادبة سوء حظها ثاكلة حشاشتها .

ليت شعرى كيف شعرت تلك الأم المحزونة إذ هى تلقى بابنها الى فراش عمران ؟ ألم تقبله قبلة الوداع ؟ ألم تذرف على وجهه المشرق الطاهر دمعة حزينة ؟ ألم ينبض لها قلب ؟ ألم تتحسر ؟ ألم تتوجع ؟ ألم تتذكر كيف كانت لذة ساعة أعقبت شقاء العمر وسبة الأبد ؟

وبعد . فاذا كانت الشرائع قد اعتبرت الأم آثمة ، فما هو إثم ذلك الطفل الضعيف المسكين العاجز عن كل شىء ، اللهم الا عن الموت ، يتلقاه دامع العين صارخاً فى وجه المجتمع ، إن لم يرع له الله قلباً كقلب عمران ، مسته الرحمة فى صميمه ، وسكنت الشفقة فى السواد من حبته .

عين الأم باكية حسرى . وعين الطفل ذاهلة حيرى . وقلب عمران فى اضطراب وخفوق . وفكره تائه فى بحر لجى من التأملات . تلك كانت حال هؤلاء عند ما انتهت عزيمة عمران على أن يكون للطفل فى مكان الأب الآثم الغادر . ونادى « تفاحة » أخته فهبت مسرعة ، وأمرها بأن تعنى بالطفل ، لانه عزم على أن يتبناه وأنه يصبح أباً فى غير أبوة ، وحاملا عن أب الطفل جرحاً ، وعن أمه إثماً .

***

— ٤ —

وانحدرت السنون ، فاذا عمران كهلا فانياً ، واذا عبد الله بن عمران ، فتى يناهز العشرين من عمره . طويل القامة مفتول الساعد ، واسع المطامع ، كبير النفس ، فخور بقوته صادق الوعد ، شديد المراس ، ماعرف اللين فى نصرة حق ، ولا عرف هوادة فى دفع باطل . بيد أنه كان مع هذا مخاطراً مجازفاً بكل ما بين يديه ، فما كان

ينتظره من شيءمن مستقبله ، اللهم الامنصب الرئاسة ، أوحبل المشنقة . وليس بينهما وسط ينزل فيه عبد الله .

ولما ان بلغ عبد الله السابعة من عمره عهد به عمران الى شيخ من شيوخ القرية ، من ظواهره التقوى والصلاح ، يعلمه القراءة والكتابة ، وعدد السنين والحساب ، ويحفظه القرآن عن ظهر قلب ، بينما عهد عمران الى نفسه بتهذيب تلك النفس التى القيت بين يديه ، ولم يكن يعرف من حقيقتها شيئاً . وقد لزم الشيخ المعلم عبد الله ، فلم يكن يبارح الدار الافى هدأة من الليل ، ويعود اليه مع البازى عليه سواد .

وكان فى خدمة عموان رجل عهد اليه باعمال الفلاحة فى الحقول . رجل من أولئك الرجال الذين كثيراً مايرون فى القرى ، غليظى الاكتاف ناتئى الجباه ، كبيرى الأنوف ، مايدل منظرهم على شيء الا على الغباء مقروناً بقوة بدنية مفرطة ، وهم فوق ذلك مستهينون بالحياة ، يؤدون فروض الدين ومراسمه من صلاة وصوم تقليداً ، لانهم يرون غيرهم يفعل ذلك . فهم خلو من كل فكرة من الحياة ، بل ومن الموت ، وفيما ينتظرهم بعد الموت من غمرة لايعرف انسان لها حداً .

وكان ذلك الرجل زوج أمرأة مفتونة فاسدة . وأب لثلاث بنات هن صورة من أمهن ، مفرطات فى كل شيء ، جامحات مع الهوى ، جانحات الى الشر والغواية . والأب مع كل هذا فى غفلة عنهن بالمحراث والابقار .

ومالنا وللاسترسال فى وصف «صالح» هذا ، فهوحيوان فى شكل بشرى ، ينام حيث يتفق ، ويشرب مما يجد ، ويأكل مايقدم اليه ، ناسياً ان من حوله جلبة تدعى العالم الانسانى أو المجتمع البشرى . إن القيت اليه بألف من الاصفر الرنان ، فكأنك القيت اليه بقطعة من خرق بائرة القيمة . وإن ضم جيبه خزائن قارون ، أملق أملاك الشعر الشعراء فى عصر عمر بن عبد العزيز ، فهو راض بكلتا الحالتين ، لاعن قناعة ورضاً ، ولا عن تواضع وإمعان فى الزهد ، بل عن جهل بما تتطلب الحياة من حاجات ، وعجز عن إدراك ماتقتضيه ظروف العصر الذى يعيش فيه من ضرورات ، ولأن حاجات الحياة كلها تستوى فى نظره . ذلك لأن كفة ميزان الفكر والعواطف قد شالت فى نفسه الى أبعد حد يمكن ان تبلغ اليه فى نفس بشرية من طينة آدم وحواء .

وذات يوم بينما كان عبدالله مع صالح فى الحقل ومن حولهما الابقار والخيل امتطى عبدالله صهوة جواد من جياد عمران . عرف فيه أنه جماحة رماحة . وما خطر لصالح أن عبدالله يكون فى خطر اذا هو امتطى صهوة ذاك الجواد . وما شأن صالح وكل هذا ؟ وماذا عليه لو أن عبدالله قد رجع سالما أم دقت عنقه سوف تشرق الشمس من المشرق وتغرب فى المغرب، وسوف يأكل خبز الشعير ويشرب الماء فى الغدران منبطحاً على صدره فوق الأرض . وسوف يجد شجرة ينام تحتها نومة طويلة هنيئة . ولتسقط بعد ذلك السماء على الأرض فتدكها دكا

وما لبث صالح على هذا غير قليل حتى تعالى الصياح من ناحية القرية ، وزاد عويل النساء ، ذلك لأن الجواد جمح بعبدالله ، وأخذ يجوب طرقات القرية إلى أن انحدر فى منزلق وعر فكبا براكبه ، فلم يترك فى عبدالله إلا عينا تنظر ، ونفساً يتردد ، ضعيفاً خافتاً

***

— ٥ —

اليك « يامقبولة » فقد فزت على الرغم من أبى بشىء أساعدكن وأباكن ، وكنت سبباً فى طرده من الخدمة بعد أن قضى فيها طوال السنين والاعوام . لقد بعت مصحفى وقليلا من كتبى بهذه الدريهمات بعد أن ضن على أبى بقليل من المال انفقه فى سبيل الشيخ صالح ، أو أمد اليه به يد المساعدة فى محنته .

فشكرك ياسيدى على ماتفضلت به ، ولو أنك أرحت نفسك من هذه المتاعب لكان خيرا بلالك وحده مشبعا لنا من جوع ، ومغنياً لنا من فقر وخصاصة .

وجلس عبدالله بجانب «مقبولة» يناجيها ويناجيه، وهى بعد تتحرش بحرارة شبابه لعلها تصيبه ، حتى مال مع الهوى فضمها إلى صدره ، وطبع على جبينها قبلة طويلة حارة ، كانت بدء مأساة تمثل فيها عف الاقدار .

كل هذا وصالح يغط فى نومه تحت السلم غطيط البكر شد خناقه ، فى غفلة عما تأتيه كبرى بناته من اثم فى غير حب وغواية فى غير اخلاص .

***

— ٦ —

مال ميزان النهار وأرسلت الشمس أشعتها الذهبية على صفحة النهر النحاسية

أصيل يوم من أيام الصيف ، وعبدالله يسير والشاطىء يتنسم من عليل الهواء مايفتح لآماله الكبار أمام عينه بابا ، حتى اذا بلغ بعدهنيهة موضع السقاية ألفى « مقبولة » واقفة على حجر ناصع البياض ، وقد كشفت عن ساقين ابيضين خلقا فتنة للنظر ، ومخبثة للعفاف ، وشمرت عن ساعدين بضين ، لو أن « فدياس » كان حياً ورآهما لما اختار غيرهما لذراعى « الزهرة » مثالا .

وأنت ترى فى وجه « مقبولة » وفى قسماتها آثاراً من خفة الفرنسويات وجمال التركيات . ومامن شك فى أن ذلك الدم يجرى فى عروق كثيرات من بنات مصر ، وعلى الأخص فى القرى التى تجاور المدن العظمى على شاطىء النيل

وقفت « مقبولة » تنتظر من يساعدها على رفع جرتها لتذهب بها إلى القرية فلما رأت عبدالله مقبلا ، وقفت فى خجل واستحياء مصطنع ، تلك الوقفة المريبة وقد لمت ثيابها على جسمها لتظهر محاسنه ، فكانت عند قول الشاعر

أبت الروادف والثدى لقمصها مس البطون وأن تمس ظهوراً

وماهى الا نظرة فابتسامة ، فسلام فكلام ، فلذة نسيان آثمة فى جوف حرش قريب من شاطىء النهر أتما بها هيكل الجريمة التى بدأ بها فى بيت أبيها

***

— ٧ —

كان عمران على الرغم من توجهه إلى الله ، وانصرافه عن مشكلات هذا العالم الانسانى ، رجلا يعرف الدنيا وحالاتها ، ويعلم إلى أى حد تذهب بالشبان حرارة حرارة الشباب ، وإلى أية مهواة تلقى بهم فيها نزعات الصبا . ولقد لاحظ أن عبدالله مفتون بجمال « مقبولة » مأخوذ بقامتها المقدودة ، وعينيها النجلاوين ، وأنفها المحدود كالسيف ، وفمها الصغير العنابى ، مقدور النفس بدلالها وعجبها ، وان شئت فقل باستهانتها وابائها .

وكان ابوهاصالحا قد استطاع أن يجمع من شتات مابين يديه من ثروة سيده عمران ، فضلات أغنته وأهله عن أن يعمل واياهن فى الحقول ، فنشأت مقبولة نشأة بعيدة عن أن تمس شيئاً من جمالها الطبيعى ، فشبت فى كفاف من العيش كفاها مؤونة التضحية بجمالها على مذبح الحاجة والضرورة . ذلك الجمال الذى ضنت به الاقدار عن أن يبذل فى سبيل العمل رخيصاً ، فضحت به مقبولة على مذبح الشهوة عجباً بنفسها وتيها

وكان اللغط قد ارتفع من حول مقبولة وعبدالله ، وقام فى ذهن عمران أن يأخذ عبدالله بالحكمة والموعظة الحسنة . فلما مثل بين يديه أخذ يذكره بعذاب الآخرة ، وبأن الله لا يرضى الا بما أمر به فى كتابه الكريم ، وان علاقته بتلك الغادة أمر تعافه الشرائع ، وان زواجه منها أمر تحول دونه التقاليد ، وانه لا يرى فى هذا الامر من رأى أقوم من أن يتغلب عبدالله على شهواته بقوة ارادته ، وأن يسلو تلك التى فتنت لبه وسلبت منه فؤاده ، متسائلا : ماذا تكون قيمة شخص فى هذه الحياة عقد لسانه من الخجل وسلب فؤاده من من مس الحب والهيام ، متمثلا بقول الشاعر :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وبينما كان عمران يفيض على عبدالله بهذه المحاضرة ، كان هذا غائبا عنه بقلبه وان كان حاضراً بجثمانه . بل كان يجرى على خاطره قول آخر لزهير بن أبى سلمى ، فأخذ يستعيد فى ذاكرته قصيدته التى بدأها بقوله :

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا وزودوك اشتياقاً أية سلكوا

ذلك لانه كان قد امضى اياماً محزون النفس ضيق الصدر منصرفاً عن الناس بائساً مكدوداً . فقد كان يتوقع ضيقاً ، لا يعرف كيف يكون منه المخرج .

وغادر عبد الله مجلس عمران من غير ان ينبس ببنت شفة أو يحرك لساناً ، مطرقاً فى الارض مترنحاً ترنح الثمل النشوان .

ولم يمض على هذا الحديث بضعة أيام حتى أصبح عمران ذات يوم واذ بالاخبار تترى بان مقبولة بنت صالح قد أخذها المخاض ، وأنها وضعت اثناء الليل طفلا ، بين جدران بيت أبيها ، وأن أباها عنى بامرها واحضر لها قابلة القرية بنفسه ، وأنه لم يأسف على شىء الا على أنها ولدت سفاحاً ، ولو أنها ولدت من طريق شرعى لكان حبه لمولودها ذاك اضعاف حبه لولدها هذا .

ولم يكد يسمع عمران بهذا حتى تواردت الصور على فكره وقلبه سراعاً متكاثرة . فخيل اليه ان خطيئة مقبولة سوف تحول بينها وبين عبد الله . ولكن مايدريه لعل الخطيئة من فعل عبدالله نفسه . وبعد هنيهة ألفى عبد الله مقبلا عليه ، ولما اقترب منه جثا على ركبتيه خشوعاً ، معترفاً بأنه السبب فى جريمة مقبولة وأنها برئية من الاثم وأنه المخطئ لانه اغواها ومناها الاماني . فما زاد وجه عمران

الا اصفراراً وقطوباً ، ثم اطرق ساعة ، مرت على عبد الله كأنها دهر ، ثم اعلن أنه عفى عن المجرم ، ونسى الجريمة ، على ان يكون هذا آخر عفو لدى عمران التقى الورع ، بعبد الله المجرم الاثم .

***

— ٨ —

وعهد عمران الى الشيخ المعلم بأن يقوم بما يجب عليه نحو المرأة الساقطة والرجل المجرم ، فيصب عليهما من علمه قدراً من الوعظ والارشاد ، يخمد مايتأجج فى صدريهما من نيران الشهوة والانفعال .

فمضى ذات يوم الى بيت صالح ، واذا بمقبولة فى الردهة ، فأخذ بيدها الى مصطبة على القرب منه وجلس اليها مقبلا عليها مطيلا النظر فى ملامح وجهها ، واعتدال قامتها ، وقوة نظراتها ، وأخذ فى الكلام الى أن تدرج الى النصح والارشاد فقال لها :

« يا بنيتى ! لأى شىء خلق الله هذا الجمال الفتان ؟ ولماذا خصك الواحد القهار بهذا السحر الماثل فى عينيك ، وهذا الدلال المنبعث من ملامح وجهك ؟ أمن أجل أن تبذليه رخيصاً فى سوق الشهوة الآثمة ؟ ولعمرى أى شىء يحول بينك وبين ارضاء شهواتك من طريق يرضى الله عنه والناس ؟ الله خلق الناس وخلق معهم شهواتهم وكل خصائصهم ، وهو بعد لم يحرم علينا أن نرضى شهواتنا مهما كان فيها من الاسفاف . ولكنه رسم لارضاء هذه الشهوات طريقا ان انصرفنا عنه كسبنا سبة أهل الدنيا وعذاب الآخرة . وانى لا أقول لك من شىء الآن الا ويمليه على قلبى فيفيض به لسانى . وانى قائل لك اليوم مقالة ان رضيت بها كسبت شرف الدنيا وأرضيت ما فيك من نزعات الشباب الغائرة . انى لا أرفض اليوم ، ابتغاء مرضاة الله تعالى والناس جميعاً ، وعلى الرغم من خطيئتك ، أن أتزوج منك فتصبحين لى حليلة لا خليلة ، وأنا رجل أحمل فى صدرى كلام الله وأعرف الحلال والحرام ، وقرأت تفسير القرآن وشرفنى الله بأن جعلنى من علماء هذا الزمان الاعلام ، بعد أن قضيت فى الازهر العامر خمسا وعشرين عاماً طوالا أحصل العلم وأتفقه فى الدين وأهذب نفسى بالتقوى ، وأثقف عقلى بالنحو وعلم الاصول ، حتى عرفت الدنيا كلها وقسما عظيما من حقائق الآخرة . »

كل هذا ومقبولة ترنو اليه بطرف ساحر ، وترسل اليه بنظرات تصبى الذين لم تعرف الصبابة الى قلوبهم بعد طريقاً . ثم امتشقت قامتها ، وابتعدت عنه تمشى على استحياء هو الكيد بعينه ، ناظرة اليه بنصف عين ومنصرفة عنه بالنصف الآخر عند حد قول بشار الضرير فى أرجوزته

قامت ترائى اذ رأتنى وحدى كالشمس تحت الزبرجد المنقد
صدت بخد وجلت عن خد ثم انثنت كالنفس المورّد

فلم يتمالك المعلم الوقور ، مبعث نور العلم فى قرية عمران ، التقى النقى الطاهر العلم ، من أن يمضى فى اثرها إلى داخل الدار ، ليتم لها عظته المبرورة التى قطع عليه تيارها سحر العيون .

***

— ٩ —

فى ظل دوحة على شاطىء النيل جلس عبدالله يناجى نفسه ويراجع ذكريات الماضى ، ويستمد منها الهداية فى حاضره ، ويرجو من الله الخير فى المستقبل

لقد غفر له سيده وأبوه عمران الخطيئة ونسيها . ولكن هل هذا كاف لان يذهب من ذهن عبد الله بكل ذكريات الماضى ؟ ذكر تلك السويعات الحلوة التى كان يقضيها ومقبولة يتشاكيان الغرام والحب ، ويتسارّان عبارات الصبابة والغرام تحت جنح الليل فى أطراف القرية أو على مقربة من شاطىء النهر المتلاطمة أمواجه المنسابة مياهه انسياب أفكارهما وأحلامهما فى فلوات الخيال ؟

وهب أن فى مقدور الانسان أن يغفر الخطيئة بفمه فهل فى مستطاعه أن يغفرها حقا بقلبه ووجدانه ؟ وما فائدة الغفران حتى ولو كان صحيحاً أمام الواقع فى فتاة أصبحت من طريق الغواية أما ، وولد أصبح من طريق السفاح بلا مركز فى الحياة الاجتماعية ؟

وما ثبت فى مخيلة عبد الله من شىء فى تلك البرهة الا وعوده وعهوده التى قطعها لمقبولة بان يصبح لها زوجا يحمل أحزانها وتحمل أحزانه . واذا كانت الخطيئة كبيرة فى نظر الله والناس ، أفليس نقض العهود إثم يغضب الآداب والشرائع ؟ وكيف تكون حال تلك الفتاة من بعده إن هو تركها فى مهاب رياح الدنيا الاربعة تتناوح من حولها بما فيها من احتقار الناس والسقوط الى أحط الدركات الاجتماعية ؟

وما زالت تلح عليه هذه الخطرات حتى استقرت على ما كان يجول في قلبه من احترام يوجب لعمران ، فقام من فوره الى بيت صالح ليجدد المقبولة عهود الحب والوفاء .

***

— ١٠ —

مضى عبد الله وكأن هموم الدنيا كلها قد تناصرت عليه فناء بها كاهله . يمضي ميمما نحو القرية مطرقا تائها زائغ البصر ، فاذا به في حقل يبعد عن القرية مسيرة نصف ساعة ، ولم ينتبه الى ذلك حتى اصطدم بشجرة قائمة على جانب الطريق عاد أدراجه ، حتى اذا بلغ بيت صالح ولج اليه فوجد ربته في فنائه ، فسألها أين مقبولة ؟ غير أنها تلكأت في الجواب قليلا ثم أخبرته أنها خارج الدار . لكن إحدى شقيقتيها ، وعلى وجهها ابتسامة مريبة ، وفي حركة تدل على السخرية والازدراء ، حسدا لا كرها ، ذكرت أنها في الحجرة الداخلية .... نائمة !!!

ووقف عبد الله أمام الغرفة وطرق الباب ، فلم يسمع من حركة تدل على وجود انسان . وظل يطرق الباب زمانا طال عليه أمده . ثم فتحت مقبولة الباب فاذا بها في نصف ثيابها محلولة الشعر جمة الاضطراب . فسألها السبب فيما يرى . فقالت أشعر بتعب ربما يكون مرضا وكنت نائمة ، ولعل وطأة الحمى كانت سببا في أن أكون في غير حالتي الطبيعية . ثم أدخلت عبد الله الى الحجرة وتركت الباب نصف مغلق .

ولم يترك عبد الله لمقبولة من فرصة للتفكير في سبب هذه الزيارة ، بل عمد الى الكلام من فوره ذاكرا لها أنه ثابت الحب صادق الوعد وفي بعهده ، وأنه سوف يتزوج منها عما قريب على الرغم من كل عمران في الارض والسماء ، وانه ليس بالرجل الخائن ولا الفاسق عند عهد الحب . وان الدنيا كلها في نظره لا تساوي نظرة واحدة من سحر عينيها أو قبلة حارة يطبعها على جبينها الوضاء .

غير أن مقبولة كانت في شغل عن كل هذا . فظلت مطرقة الى الارض ما تحير جوابا ولا تحرك لسانا . وكان في آخر الحجرة باب آخر يسلم الى غرفة مجاورة اسدلت عليه قطعة من الخيش لتحجبه عن الانظار . ولست تعلم سببا في أن قطعة الخيش قد سقطت جأة وظهر ما وراءها فتجلى لعيني عبد الله ، وما رأى

من شىء اللهم إلا الشيخ المعلم الوقور ، حامل العلم ومفسر آيات الله ، واقفاً عارى الجسد أصفر الوجه ، مضطرب الاعصاب يهتز اهتزاز الرقاص ، وينتفض من مفرق رأسه الى موطىء قدميه

هنا عرف عبد الله الحقيقة كاملة ، وافتضحت أمام عينيه حقائق هذا الوجود الانسانى ، وطارت كل أحلامه وآماله مع الاثير اللامتناهى ، وعرف أن الظواهر وهم وخيال وأنها لاتغنى عن الحقيقة شيئا . ولكن الى أين يذهب من وجه هذا المجتمع ؟ ليس له من مذهب الا إلى جوف يم متلاطم الامواج يسع أحزانه .

ظل عبد الله ينظر نظرات زائغة حيرى ، ثم أدار ظهره اليهما وخرج من الغرفة متثاقلا . ولكن الى أين ؟ الى شاطىء النيل حافظ أسرار جدوده الاولين ليلقى الى جوفه وبين أسرارهم بذلك السر الاليم .

وهنالك من فوق جرف عال يشرف على دردور قوى التيار وقف عبد الله يتأمل فى السماء هنيهة ، وما هى الا لحظة واحدة أطبق بعدها النيل جفونه على عبد الله ، أبن الخطيئة ، ومرتكب الخطيئة . قذف بنفسه بين لجة الدردور وعلى شفتيه قولة « هأنذا » ، وليس يعلم أحد أيقولها لابنه أم لربه ؟

* * *

— ١١ —

بعد بضعة أيام رجع الغواصون بجثة عبد الله الى القرية كأن ظلم الانسان لم يشأ أن يقف عند حد ، فاخرج الجثة الهامدة من جوف البحر اللجى ، ليسجنها فى ثمانية أشبار من جوف الارض .

وفى الطرف الشرقى من القرية حيث كانت الطريق التى سوف تمر منها جثة عبد الله محمولة على الاعناق تعالى صوت امرأة خرجت من خدرها منادية « أى ولدى وحشاشة كبدى » . ثم سقطت على قارعة الطريق فاقدة الرشد هاطلة الدموع

مات الولد وفضحت الام ، وأسدل على آخر امال عمران ستار من اليأس زاده فى الحياة زهدا وفى الناس مقتاً .

أليس فى كل هذا أثر كبير من عسف الاقدار ؟

فہرست

صفحہ		
۱۰۱	تأملات فی الادب والحیاۃ : الفرق بین الشرق والغرب — معتقد داروین الدینی الشخصیۃ — کلمات لطاغور الشاعر الآلمی — الشعراء والناثرون — السببیۃ والغائیۃ فی الفلسفۃ — الحظ فی الحیاۃ	فیلوبونس
۱۲۳	الشیعۃ فی العراق	
۱۱۳	فلسفۃ الانقلاب الترکی الحدیث	المحرر
۱۳۳	تاریخ النضال بین الدین والعلم	عمر عنایت
۱۳۸	فلسفۃ النسبیۃ أو النسبیۃ وما بعد الطبیعۃ	المحرر
۱۴۳	الخطرۃ النفسیۃ وموضوع الذہن	اصفہانی
۱۴۹	عن لیالی الفرید دوموسیہ	للدہشان
۱۵۰	الزولوجیا — أو مبادیء علم الحیوان	المحرر
۱۶۳	حریۃ الفکر ونشر الدعوۃ الحکومیۃ — محاضرۃ للعلامۃ برتراند رسل : تلخیص بقلم الاستاذ حسین محمود	
۱۷۵	جیرولاموسافونارولا — بطل الحریۃ والواجب فی القرون الوسطی	فیلوزوف
۱۸۸	عسف الاقدار — قصۃ واقعیۃ	المحرر